الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية

البحث في الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية يرفع لنا النقاب عن صفحة من تاريخ الفكر العربي ، ويبين لنا صلة هذا الفكر بثقافتنا الحاضرة من أدب وفلسفة واجتماع . فقد يظن المرء للوهلة الأولى أن مباحث الفلسفة العربية ليست ذات صلة بالحاضر ، وان تفهم ما ذكره الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد عن العقل الفعال والنفس والفيض والمادة والصورة يحتاج الى عادات فكرية قديمة ، وأساليب فلسفية بالية . وهذا الظن ، على ما فيه من صدق ، لا ينطبق تماماً على الواقع ، لأن التشابه بين حياتنا الفكرية القديمة ، وحياتنا الفكرية الحديثة عظيم الى حد بعيد . ولا نزال حتى الآن نحمل آثار الماضي ، ونتبع في تفكيرنا الأساليب التي ورثناها عن أجدادنا . وسواء أكانت هذه الآراء القديمة صحيحة أم فاسدة ، فليس من شك في ان دراستها توضح لنا بعض نواحي حياتنا الحاضرة . هذا ما نرجو ان نوفق لإثباته في الفقرات الآتية :

١ — ما هي الطريقة الرمزية

الطريقة الرمزية هي الطريقة التي نعبر بها عن أفكارنا بالألغاز والرموز . فاذا كانت أفكارنا مجردة بعيدة عن الحس عبرنا عنها برموز حسية ، كما نمثل المعاني الأدبية بالصور المشخصة ، والحقيقة بالمجاز . فالثعلب هو رمز الخداع ، والكلب رمز الوفاء ، والحرباء رمز التقلب ، والفراشة رمز الطيش ، والصولجان رمز الملك . وقد ندل على الأمور الحسية باشارات ورموز مجردة ، كما نعبر عن الأشياء بالألفاظ ، وكما ندل على الأشياء المعدودة بالأعداد ، وعن العمليات الحسابية بالإشارات ، وكما نمثل الكميات الجبرية بالحروف .

فللطريقة الرمزية اذن وجهان احدهما يمثل الحقائق المجردة بالرموز الحسية ، والثاني يعبر عن الأمور الحسية بالرموز المجردة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولسنا نريد الآن ان نحيط بهذه الطريقة احاطة فلسفية تامة ، فغرضنا ليس بالطامح ولا بالبعيد . وانما نريد ان نشير بذلك الى ان الطريقة الرمزية التي نهجها بعض فلاسفة العرب في أمثالهم والغازهم ، هي طريقة التمثيل الحسي للحقائق العقلية . وهذا التمثيل قد ساقهم الى توضيح القيم الخلقية وتفسير المذاهب الدينية في ضوء الحقائق الفلسفية تفسيراً يعبث بالنصوص ويستخرج منها كثيراً من المعاني التي يقرها أهل الباطن وينكرها أهل الظاهر .

وفي اللغة العربية كثير من هذه الرموز والألغاز ، مثل رسالة الطير لابن سينا ، ورسالته في القضاء والقدر ، ورسالته في اثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم ، وقصة سلامان وابسال ، ومثل رسالة الطير للغزالي ، وقصة حي بن يقظان لابن الطفيل ، وتدبير المتوحد لابن باجا ، وهي كلها تريد ان تعبر عن الأمور العقلية المجردة بلغة الخيال .

وفيها كثير من كتب السحر وأسرار الحروف التي تريد ان تكشف لنا عن تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة .

وفيها كتب في التصوف ، وكتب أخرى وضعت على أفواه البهائم والطير وقصص وحكايات وامثال واشعار رمزية .

فمن قرأ هذه الكتب ولم يعرف الوجوه التي وضعت لها ، والرموز التي رمزت اليها ، والى أي غاية جرى مؤلفوها فيها ، لم يدر ما اريد بتلك المعاني ، ولا أي ثمرة يمكن اجتناؤها منها .

٢ — دراسة بعض الأمثلة

ولسنا نستطيع الآن ان نشرح جميع هذه الرموز ، لأن ذلك يحتاج الى بحث طويل . ويكفي لفهم الطريقة الرمزية في الفلسفة العربية ان ندرس مثالاً أو مثالين وان نستخرج منها بعض النتائج العامة .

المثال الاول . — فأول مثال يستحق عنايتنا ، ويتفق مع غايتنا ، هو قصة سلامان وابسال . وهي على أشكال مختلفة ، ورد ذكرها في كثير من الكتب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأشار اليها ابن سينا في كتاب الإشارات ، وزعم بعضهم أنها من قصص العرب . ومهما يكن من أمر ، فان القصة التي اعتمدناها هنا هي أجمل القصص وأعمقها . لا بل هي رواية كاملة تصلح لأن تنظم شعراً ، وتوضع في قالب تمثيلي [1]

وخلاصة هذه القصة انه كان في قديم الدهر ، قبل طوفان النار ملك اسمه (هرمانوس) بن هرقل ، وكانت له مملكة الروم الى ساحل البحر ، مع بلاد اليونان وأرض مصر ، وكان هذا الملك ذا علم غزير ، شديد الاطلاع على تأثيرات الصور الفلكية . وكان الحكيم الإلهي (اقليقولاس) من اساتذته واصحابه ، فتعلم (هرمانوس) منه جميع العلوم الخفية ، وكان يستشيره في كل أموره . وكان هذا الملك لا يلتفت الى النساء ، وكان يكره معاشرتهن ، فأشار الحكيم عليه بأن يتزوج امرأة ذات حسن وجمال ، تحمل منه ولداً ذكراً ، فأبى الملك ذلك ، فقال له الحكيم أيها الملك ، ليس لك سبيل اذن الى اتخاذ الولد الا أن ترصد طالعاً فلكياً موافقاً ، وتستبدل بالمرأة يبروجاً صنمياً ، وألازم انا نفسي تدبير هذا الولد واصرف اليه همتي ، وقوة فكري ، حتى تجتمع اجزاؤه ، ويقبل الحياة ويصير انساناً تاماً . وسمى الولد الذي جاء على هذه الصورة سلامان ، فجاؤا له بامرأة جميلة ، لم تبلغ الثامنة عشرة من سنها ، يقال لها (ابسال) فأرضعته ، وتولت تربيته ، وفرح الملك فرحاً شديداً ، وبني على أثر ذلك هرمين ، وفقاً لغرض الحكيم لا يخربها الماء ، ولا تحرقها النار ، بل يكونان حصنين منيعين لبقاء النفس .

فلما تم زمن الرضاع ، أراد الملك ان يفرق بين الصبي والمرأة ، فجزع الصبي من ذلك لشدة شغفه بها . فلما رأى الملك ذلك منه تركه الى حين البلوغ ، فاشتدت محبته للمرأة ، وقوي عشقه لها ، حتى كان في أكثر أوقاته يفارق خدمة الملك لإصلاح أمرها . فقال له الملك : أيها الولد الشفيق ، أنت ولدي ، وليس لي في الدنيا غيرك ، فاعلم ان النساء هن مكايد الشر ، ومصايد البؤس ، وما أفلح من

(١) تجد هذه القصة مع قصتين تشبهانها في آخر «تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات» لابن سينا طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ . راجع أيضاً شرح الاشارات للطوسي ، ص ١٠٣ من الجزء الثاني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خالطهن، فلا تجعل لامرأة في قلبك مكاناً، حتى يصير عقلك مقهوراً، ونور بصرك مغموراً، فخذ نفسك عن هذه الفاجرة (ابسال) اذ لا حاجة لك فيها، وانا أخطب لك جارية من العالم العلوي تزف اليك أبد الآبدين. ولكن سلامان لم يصغ لكلام الملك لشدة شغفه بأبسال، فرجع الى بيته وحكى لها كل ما جرى له مع الملك، فقالت له: لا يقرعن سمعك قول الرجل، فانه يريد ان يفوت عليك اللذة بمواعيد أكثرها اباطيل، وجلها وهم وتخييل. واني امرأة مأمورة لك بكل ما تطيب به نفسك، فان كنت ذا عقل وحزم، فاكشف للملك عن سرك، بأنك لست تاركي، ولست بتاركة لك، وبلغ الملك هـذا الأمر فتأسف تأسفاً شديداً على ولده، ودعاه اليه وقال له: اجعل حظك قسمين، ففي احدهما تشتغل بالاستفادة من الحكماء وفي الثاني تعاشر (أبسال)، فرضي سلامان بذلك، ولكنه لم يف بوعده، بل كان يصرف وقته كله في معاشرة (أبسال) واللعب معها. فلما عرف الملك منه ذلك شاور الحكماء على ان يهلك (أبسال) حتى يستريح منها، فصرفه الحكيم عن هذا الرأي، فاطلع (سلامان) على ما جرى بين الحكيم والملك وشاور (أبسال) في الحيلة، فتقرر عزمهما على الهرب من وجه الملك الى ما وراء بحر المغرب.

وكان عند الملك قصبتان من ذهب عليهما سبع صفارات، يصفر بها لكل اقليم فيطلع على ما يريده منها، ففتح الملك في القصبة فاطلع على سلامان وأبسال فوجدهما على أسوأ حال. فرق لهما وأمر لكل منهما بما يكفيه، وقال في نفسه لعل الصبي يعود الى الحق، فلما مضى على ذلك مدة من الزمان، غضب الملك عليهما فأبطل لذتهما بعلوم كان يعرفها، فبقي كل واحد منهما في أشد ألم من رؤية صاحبه، وشدة الشوق اليه، وعدم الوصول اليه.

فعاد سلامان وجاء الى باب الملك معتذراً مستغفراً، فقال له ابوه: ان سرير الملك يريد التوجه التام، وابسال ايضاً تريد ذلك، وكلاهما لا يجتمعان، ولا يمكنك ان تصعد السرير وأبسال معلقة برجليك، وكذلك ايضاً لا يمكنك ان تصعد سرير الأفلاك وحب أبسال معلق برجلي فكرك. ثم ان الملك أمر ان يعلق أحدهما بالآخر، فبقيا كذلك يومين، فلما كان الليل انزلهما، فمضى كل واحد منهما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأخذ بيد صاحبه وألقيا بنفسيهما في البحر ، فخلص الملك سلامان بعد ان اشرف على الهلاك ، وغرقت أبسال .

فلما تحقق (سلامان) أن (أبسال) قد غرقت كاد ان يشرف على الموت لشدة فراقها ، ففزع الملك الى الحكيم في امره ، فدعاه الحكيم اليه ، وقال يا (سلامان) ! هل تريد وصال أبسال ، فقال وكيف لا أريد ذلك ، وهذا هو الذي شوش علي امري ، فقال له الحكيم اني اوصل اليك (أبسال) بثلاثة شروط : الأول ان لا تخفي عني شيئاً من امرك ، والثاني أن تقلدني في كل ما افعل ، والثالث ان لا تعشق غير ابسال مدة عمرك ، فأطاعه في ذلك ، فكان الحكيم يحضر اليه صورة أبسال تجالسه وتتلطف معه في الكلام حتى الفها ، فأراه بعد ذلك صورة الزهرة ، وهي صورة فائقة على كل حسن وجمال فشغف سلامان بهذه الصورة الجديدة شغفاً عظيماً أنساه حب (أبسال) فقال ايها الحكيم لست أريد ابسال ، وقد لاقيت منها ما اكرهني صحبتها ، ولا أريد الا هذه الصورة ، فسخر له الحكيم صورة الزهرة حتى كانت تأتيه في كل وقت ، ولم يزل كذلك الى ان زال عن قلبه حبها ، وصحا عقله ، وصفا من كدورة المحبة ، فشكر الملك للحكيم سعيه في إصلاح أمر ولده ، وجلس سلامان على سرير الملك ، ونظر في الحكمة ، وصار صاحب دعوة عظيمة ، وأمر ان تكتب قصته هذه على سبعة الواح من ذهب ، وان تحفظ في الهرمين فلما ظهر افلاطون الإلهي ، بعد طوفان الماء والنار ، اطلع على مافي الهرمين من العلوم الجليلة والذخائر النفيسة ، فسافر اليهما ، لكنه لم يتمكن من فتحهما ، فأوصى بذلك الى تلميذه (آرسطو) فلما توجه (الاسكندر) الى جهة الغرب ، توجه (آرسطو) معه الى ان بلغ الهرمين ففتح بابهما بالطريقة التي أوصى بها افلاطون ، وأخرج منهما الألواح التي كتبت عليها هذه القصة .

التأويل — تلك هي قصة سلامان وابسال ، فهل تدل على مذهب فلسفي معين ، أم تشتمل على رموز واسعة يستطيع الانسان ان يضع فيها ما يشاء من الأفكار . ليس من الصعب أن يثبت الباحث ان هذه القصة متفقة مع مبادئ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وانها مترجمة عن اللغة اليونانية ، ولكن أمراً واحداً لا شك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيه ، وهو ان هذه القصة قد اشتملت على رموز كثيرة سنحاول الآن شرحها .

لقد حلّ لنا الطوسي بعض هذه الرموز والألغاز ، فقال ان الملك (هرمانوس) هو العقل الفعال . والحكيم هو الفيض الإلهي ، وسلامان هو النفس الناطقة ، وابسال هي القوة البدنية الحيوانية ، وعشق سلامان لابسال هو ميل النفس الى اللذات البدنية والشهوات ، وهربها الى ما وراء بحر المغرب ، هو انغماسها في الأمور الفانية البعيدة عن الحق واهمالها مدة من الزمان ، وتعذيبها بالشوق مع الحرمان هو بقاء ميل النفس وهواها مع فتور القوى عن افعالها بعد سن الانحطاط . ورجوع سلامان الى أبيه هو التفطن للكمال والندامة على الاشتغال بالباطل . والقاء نفسيهما في البحر هو تورطها في الهلاك ، اما البدن فلانحلال القوى والمزاج ، واما النفس فلمشايعتها اياه . وخلاص سلامان من الهلاك هو بقاء النفس بعد البدن ، واطلاعه على صورة الزهرة هو ابتهاج النفس بالكمالات العقلية ، وجلوسه على سرير الملك هو وصول النفس الى كمالها الحقيقي ، والهرمان الباقيان على مرور الدهر هما الصورة والمادة الجسمانيتان .

فسلامان وابسال هما اذن اسمان رمزيان ، وقد اشار اليهما ابن سينا في كتاب الإشارات بقوله : « واذا قرع سمعك فيما يقرعه ، وسرد عليك فيما تسمعه ، قصة لسلامان وأبسال فاعلم ان سلامان مثل ضرب لك ، وان ابسالاً مثل ضرب لدرجتك في العرفان ، ان كنت من أهله [1] » . وكلام ابن سينا هذا مشعر بوجود قصة من هذا النوع ، الا انه لا ينطبق على القصة التي أوردناها ، بل ينطبق على قصة أخرى ذكرها الطوسي ، وشرحنا رموزها في موضع آخر [2] حتى لقد ذكر الطوسي في شرح الاشارات [3] قصة جاء فيها ان رجلين وقعا في أسر قوم احدهما مشهور بالخير اسمه (سلامان) ، والآخر مشهور بالشر اسمه (ابسال) ، فأنقذ سلامان من الأسر لشهرته بالسلامة وهلك أبسال لشهرته بالشر ، وصار منهما في العرب مثل يذكر فيه خلاص سلامان وهلاك ابسال صاحبه . فكأن المراد بسلامان هنا النفس

(١) شرح الاشارات لنصير الدين الطوسي ، الجزء الثاني من الطبعة الأولى بالمطبعة الحيدرية ، سنة ١٣٢٥ هـ ، ص ١٠١ (٢) راجع كتابنا من أفلاطون الى ابن سينا ص ١٠٩ — ١١١

(٣) شرح الاشارات للطوسي ، ص ١٠٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الناطقة ، وبأبسال الطبائع الغريزية والشهوات . وقد قيل أيضاً ان المراد بسلامان آدم ، وبأبسال الجنة . ومهما يكن من أمر فان هذه القصة قد لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الآداب الشرقية فقلدها ابن سينا بقصته ، ونحا ابن الطفيل نحوها في قصة حي بن يقظان حتى لقد نظمها (جامي) الشاعر الفارسي شعراً ، فقال مثلاً يصف أبسال وهي ترضع الطفل :

« اذا جاءت ساعة النوم نصبت سريره ، وجلست عند رأسه كأنها السراج المنير ، واذا طلع الفجر اصلحت امره ، وزينته كأنه دمية من ذهب » .

وقال أيضاً يصف موت (ابسال) :

« يقول سلامان كيف أصبر على هذا المصاب الذي حل بي . ليتني مت معك يا أبسال ، وليتني سرت في طريق العدم ، بل ليتني عريت من هذا البدن الذي يقيدني لأتذوق السعادة الأبدية » .

وشبيه بذلك أيضاً ما نجده عند بعضهم من الشعر الرمزي ، لأن الشاعر الرمزي يرمز الى الأفكار والعواطف بمثالات حسية مشابهة لها . فقد يكون وجه الشبه بين الفكرة ومثالها الحسي واضحاً بيناً وقد يكون مبهماً غامضاً . وربما اقتصر التشابه بينهما على لون انفعالي أو صفة عرضية متبدلة . فمن هذا الشعر الرمزي قول ابن سينا :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع

فقد رمز الى النفس بالورقاء ، لأن الورقاء أقل كثافة وألطف جوهراً من غيرها من ذوات الجناح ، وأراد بالمحل الأرفع عالم العقول المجردة الذي تفيض منه النفوس على الأبدان ، وأراد بالهبوط الفيضان من العالم الروحاني الشريف الى عالم الأجسام الخسيس الكثيف ، وأراد بقوله محجوبة انها ممنوعة عن الادراك بالحواس الظاهرة ، وبقوله سفرت ولم تتبرقع انها مدركة بالعقل لا يسترها حجاب المادة .

ومن هذا الشعر الرمزي أيضاً شعر المتصوفين كمحي الدين بن العربي وابن الفارض وغيرهما . فما قاله ابن العربي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ألا يا ثرى نجد تباركت من نجد سقتك سحاب المزن جوداً على جود
وحياك من حياك خمسين حجة بعود على بدء وبدء على عود
قطعت اليها كل قفر ومهمه على الناقة الكوماء والجمل العود
الى ان تراءى البرق من جانب الغضا وقد زادني مسراه وجداً على وجد (١)

فأراد بثرى نجد مركب العقل ، وبسحاب المزن سحاب المعارف ، وبالتحية سلام الحق مردداً بلطائف الاشارات ، وبالقفر المهمه الرياضة النفسية والمجاهدة البدنية ، وبالناقة الكوماء الشريعة ، وبالجمل العقل المجرد ، وبالبرق المطلوب ، وبالغضا الاشراق النوراني ، وبمسراه لمعانه من جانب الكون ، فان السر لا يكون الا ليلاً والكون عنده هو الليل .

وقد بالغ ابن العربي في هذا التفسير الرمزي حتى أخذ يؤول شعر غيره أيضاً على هذه الطريقة . وليس غرضنا الآن ان ندرس هذه الطريقة في الشعر ، فلنعد اذن الى الغايات التي جرى اليها الفلاسفة في طريقتهم الرمزية لأن غايتهم تختلف عن غاية الشعراء والمتصوفين .

فالمتصوفون يعتقدون أولاً أنه ليس للموجودات الحسية وجود حقيقي ، بل لها وجود وهمي جعله الله فيها ، لا بقيام ذاتي ، بل بإقامة الحق . وبما ان عالم الشهادة ليس في الواقع الا سراباً خادعاً توحيه الينا حواسنا ، فاننا نضل عندما نفتش عن الخالق في العالم الخارجي ، فمن الواجب علينا اذن ان ننصرف الى ضمائرنا ، الى قلوبنا ، نفتش في زواياها عن الخالق ، فهي أصلح مكان وأفضله لظهور الحق . والمتصوف هو قبل كل شيء فيلسوف خيالي ، فاذا التفت الى العالم الحسي لم يجد فيه الا رموزاً تدل على ما في نفسه من المعاني ، فيمثل النفس بالورقاء ، والشريعة بالناقة ، والعقل المجرد بالجمل ، والرياضة النفسية بالمهمه القفر ، وهذا شبيه بطريقة الشعراء الرمزيين في وقتنا هذا الذين لا يجدون في الطبيعة الا ظواهر متغيرة ، وحقائق مقنعة ، ورموزاً حسية تدل على ما يشعرون به في داخلهم من المعاني ، فتنحل المحسوسات

(١) ابن العربي . كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار الجزء الأول ، ص ١٠٧ ، من الطبعة الأولى بالمطبعة العثمانية ١٣٠٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عندهم الى عواطف وتنشح الأشياء بالألوان الانفعالية التي يسبغونها عليها من انفسهم ، فكأن الطبيعة عندهم رمز خارجي لحقيقة وجدانية عميقة .

وشبيه بذلك أيضاً تفسير الأحلام على الطريقة الرمزية ، فيوسف بن يعقوب رأى رؤيا فيها الكواكب والشمس والقمر فقال لأبيه : « يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » فعرف يعقوب تأويل الرؤيا وخشي عليه اخوته ، فالقمر ابوه والشمس امه والكواكب اخوته . فالصور في الرؤيا المرموزة تدل على الأشياء والوقائع كما تدل الاشارات والاصطلاحات على المعاني .

ولكن غاية فلاسفة العرب من الطريقة الرمزية تختلف عن ذلك تماماً ، فهم يريدون ان يلبسوا الحقائق الفلسفية المجردة ثوباً حسياً ، لأن هذه الحقائق العقلية بعيدة عن الفهم ، لا تدركها العامة الا بشق الأنفس ، فاذا البست هذا الثوب الرمزي ، سهل على العامة فهمها ، واصبحت مفاهيمها الفارغة مشتملة عندهم على شيء محسوس .

والعامة تحب الرموز ، وتبتهج بالخيال ، لأنها لا تستطيع ان ترتقي الى عالم المعقولات ، وخير لها ان تبقى في عالم الصور الحسية ، وان تدرك الأمور الدينية والفلسفية على ظاهرها ، وان تزجر عن البحث في هذه الأمور . فان ساحل البحر ، كما قال الغزالي ، انما يصل اليه السباح الماهر لا الأخرق ، والحية انما يمسها المعزم البارع لا الصبي . ولكن لا بأس على الصراف الناقد البصير ، اذا ادخل يده في كيس القلاب ، واخرج منه الابريز الخالص ، وترك الزيف والبهرج[1] .

فهناك إذن رجلان عامي جاهل يجب ان يصد عن الحقائق الخفية ، وعالم فيلسوف يفهم حقائق الأمور ويدرك كنهها . وهذا الفرق بين العامي والفيلسوف قد أشار اليه ابن الطفيل في قصة حي بن يقظان ، وهي قصة شبيهة بقصة (روبنسيون كروزي) تشتمل على كثير من الرموز . كرمز حي بن يقظان ، وسلامان وابسال .

يتبع : جميل صليبا

(١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ١٠٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net